جريجورى يافيموفيتش راسبوتين

حمل راسبوتين لقب الراهب.. وهو لم يدرس حرفا واحدا فى علم اللاهوت وعرف عنه أيضا أنه صاحب قدرات خارقة ونظرات قادرة على سلب إرادة من ينظر إليه رغم أن اسمه الذى حمله طوال عمره يعنى الفاسق الفاجر.

عاش راسبوتين ومات والغموض يغلف حياته.. وترتبط به قصص خرافية حول معجزاته وقدراته الهائلة.. والمواقف العجيبة التى تعرض لها فى بدايات شبابه كان يتبع المذهب الخلوستى ورغم ذلك استطاع أن يفرض نفوذه وسيطرته على العائلة المالكة فى روسيا القيصرية حتى قيل عنه إنه كان أحد أسباب ضياع ملكهم وقيام ثورة روسيا البلشفية عام ١٩١٧ والتى اندلعت بعد مقتله بعام واحد.

احتار المؤرخون فى أمر راسبوتين.. فمن قال عنه إنه كان رجلا فظا، شرها للطعام كريه الرائحة لايكف عن شرب الخمر التى لاتؤثر به.. ولايتورع عن إغواء النساء وإجبارهن على إقامة علاقات جنسية معه.. حتى أنه نسب إليه اغتصاب مئات الفتيات تحت ستار سطوته الدينية.. وهناك من قال عنه إن ماكتب عنه سجله أعداؤه وأنه كان رجلا بسيطا قرويا امتلك قدرات خارقة استطاع أن يصل بها إلى فرض سيطرته على النبلاء وابناء المجتمع الراقى فى روسيا حتى تسلل من خلالهم إلى قصر القيصر ودافع عنه مريدوه حتى قالوا إنه كان زاهدا لايعبأ بالأموال التى تتدفق عليه ولايتوانى عن منحها للفقراء والمحتاجين.

ورغم كل ذلك الغموض إلا أن الكثير من شخصية راسبوتين قد اتضح من خلال مجريات الأحداث واستطاع وهو القروى الجاهل الفقير أن يقتحم القصر الملكى ويفرض نفوذه الهائل عليهم متخذا الدين كستار اختفى خلفه ولم يمنعه مسوح الرهبان من اتباع المذهب الخلوستى والذى كان أعضاؤه يتقربون إلى الله

عن طريق الممارسات الجنسية الشاذة.. وهو نفس المذهب الذى اعتنقه بعده بعشرات السنين ديفيد بورج صاحب مذهب أطفال الرب.

ولد راسبوتين فى أواخر عام ١٨٦٠ فى مدينة صغيرة اسمها «بوكروفسكو» التابعة لمقاطعة تيومين فى سيبيريا.. كان والده فلاحا ويمتلك مجموعة كبيرة من الجياد وكان سكيرا مدمنا على شرب الخمر ورغم ذلك كان مجدا فى عمله واستطاع أن يحول قطعة الأرض التى يمتلكها إلى جنة حقيقية دفعت أهل القرية لانتخابه زعيما عليهم وعاش مع زوجته وابنه راسبوتين وشقيقه وشقيقته.

نشأ راسبوتين فى حضن الطبيعة التى أكسبته القوة والقدرة على الاحتمال.. وعشق الخيل منذ طفولته واهتم به والده فعلمه القراءة ولم يعلمه الكتابة وانطلق راسبوتين فى سهول ووديان قريته الباردة.. كان يقضى ساعات طويلة فى السباحة فى المياه الباردة ويستغرق فى صيد السمك والانطلاق فى الوديان.. وكان صاحب جسد قوى يتحمل المشاق والبرودة الشديدة والعمل الشاق.. وعرف عنه منذ صغره أنه صاحب قدرات خاصة اكتشفها أهل قريته عندما كانوا مجتمعين فى منزل والده لبحث مشكلة سرقة جواد من مخزن فلاح فقير وكان راسبوتين لم يكمل عامه العاشر بعد وكان يرقد مريضا فى أحد أركان منزله الذى اجتمع فيه أهل القرية وفجأة نهض من فراشه.. صائحا وهو يشير إلى أحد الرجال الجالسين وكان من أثرياء القرية وهتف هذا هو السارق.. وأصاب بكلماته حالة من الضيق بين أهل القرية حتى اضطر والده للاعتذار للرجل مبررا صيحته بأنه مريض ويعانى من الحمى التى تجعله يهذى وانصرف الجمع من المنزل وأسرع الرجل الذى اتهمه راسبوتين بالعودة إلى منزله ولم يلاحظ أن اثنين من أهل القرية قد سبقاه فى الخفاء بعد أن لاحظا تعبيرات وجهه عندما وجه إليه راسبوتين اتهامه.. فسارا خلفه حتى شاهداه وهو يسرع إلى مخزنه ليخرج منه الحصان المسروق ليطلقه.. فسارعا للإمساك به وضرباه بقوة وأعادا الحصان المسروق إلى صاحبه.. وارتبطت تلك القصة بالطفل راسبوتين وكان يرى نظرات التقدير والاحترام فى عيون أهل القرية.

وعندما بلغ راسبوتين الثانية عشرة من عمره تبدلت حياته الوادعة الهادئة لتنقلب رأسا على عقب بعد وفاة والدته واحتراق منزله.. وقبع مع والده وشقيقه وشقيقته فى المنزل المحترق محاولين إصلاحه حتى خرج فى أحد الأيام مع شقيقه ليمارسا السباحة فى النهر.. فجرف التيار شقيقه واستطاع راسبوتين أن ينقذه من الغرق حتى مر بهما أحد أهل القرية وانتشلهما من النهر.. ولم يستطع شقيقه ببنيته الضعيفة أن ينجو من الموت.. فمات فى اليوم التالى بعد أن أصيب بالمرض.. ولم تمر سوى أيام قليلة إلا وسقطت شقيقته فى النهر وهى تغسل الثياب بعد أن داهمتها نوبة صرع وغرقت هى الأخرى لتترك راسبوتين وأباه الذى فقد ثروته من الجياد فى الحريق الذى اندلع فى منزله وأصبحت حاجتهما ماسة إلى المال.. ولم يجد راسبوتين أمامه سوى البحث عن عمل حتى يجد قوت يومه.. واستطاع أن يحصل على عمل كسائق لعربة كانت تنقل المسافرين والبضائع بين المدن وهو الأمر الذى اضطره للغياب أياما طويلة عن منزله ووالده.. وساعده بنيانه القوى على تحمل مشاق هذا العمل حتى أنه كان يضطر للنوم أسفل العربة فى رحلاته الطويلة .. التى كان بدأ يعرف كيف يستمتع بها من خلال إقامته لعلاقات جنسية مع القرويات اللاتى كان يلتقى بهن فى أسفاره بين المدن.

وصلت أخبار راسبوتين فى إغواء النساء إلى أبناء قريته فاكتسب شهرة مدوية كانت تجعل رجال القرية يخشون منه على نسائهم وفتياتهم وهو بالكاد قد أكمل عامه السادس عشر ولكن طاردته شهرته وخاصة فيما عرف عنه من تبجح فى إقامته لتلك العلاقات.

عاش راسبوتين متنقلا بين المدن المجاورة لقريته لايتورع عن ارتكاب أى شرور أو معاص مطاردا النساء والفتيات حتى التقى فى واحدة من سفرياته بشاب متدين يدعى «ميلتى سابوريفسكى» طلب منه أن يقوم بتوصيله إلى دير «فيرخوتور» وكان يبعد عن قرية راسبوتين بعدة ساعات سفر.. وافق راسبوتين على توصيل الشاب وتحدثا كثيرا أثناء الطريق واكتشف الشاب أن راسبوتين يمتلك معرفة معقولة عن الدين اكتسبها من حكايات والده وقراءاته لهم من

الكتاب المقدس فى أيام الرخاء.. وأثر حديث الشاب الوديع فى راسبوتين وهاله أن الشاب قد قام بتلك الرحلة الطويلة من أجل أن يحصل على بركة «القديس سيمون» المدفون بجوار الدير والذى عرف عنه قدراته على شفاء المرضى وكان موقع دفنه يستقبل آلاف الزوار الراغبين فى الشفاء.

أثار ذلك العالم الغريب الملىء بالخوارق مشاعر راسبوتين فحدث الشاب عن الخطايا التى ارتكبها فنصحه الشاب أن يظل بالدير لفترة حتى يتخلص من خطاياه وذنوبه ويحاول التقرب إلى الله.

وما إن وصلا إلى الدير حتى اكتشف راسبوتين الكثير من الأشياء التى أثرت فى حياته فيما بعد وجعلته يتحول من مجرد قروى جاهل إلى صاحب نفوذ وقوة وقدرة خارقة فى التأثير على الآخرين كان الدير يقع وسط القرية ولم يكن رهبانه منعزلين خلف أسوار الدير وإنما كانوا يختلطون بالفلاحين بل ويشاركونهم أعمال الزراعة والفلاحة.. فلم يشعر راسبوتين بالغربة أو الضيق مما جعله يقرر أن يمكث لفترة خاصة بعد أن التقى بـ «ماكارى» الحكيم.. الراهب الذى اختار أن يعيش فى كوخ وحيدا على أطراف الغابة التى تحيط بالقرية.. وكان زوار الدير يبدأون رحلتهم بزيارة عظام القديس سيمون والتبرك بها من أجل الشفاء من الأمراض ثم يلجأون إلى الحكيم ماكارى لطلب البركة منه.. اقترب راسبوتين من الحكيم حتى كاد لايفارقه وهو ماجعل الحكيم ينصحه بضرورة تعلم الكتابة وقراءة المزيد من الكتب.

كان عالما جديدا اندمج فيه راسبوتين بسرعة وفيه تعرف ولأول مرة على أبناء الطائفة الخلوستية التى سيصبح واحدا منهم بعد عدد قليل من السنوات فقد كان الكثير ممن يعتنقون الخلوستية التى كانت منتشرة فى أنحاء روسيا كلها ويقيمون فى قرية «فيرخوتور» وكان هذا المذهب يحارب من الكنيسة فى روسيا ويقسم المذهب الخلوستى العالم إلى قسمين هما الروح والجسد ويؤمن أن الروح هى الخير وأن الجسد منبع الشر وأن جسد المسيح سيظل مدفونا فى الأرض فى حين أن روحه تنتقل من إنسان إلى آخر لتسكنه وأن الجسد الذى ستسكنه روح المسيح

هو غالبا نبى المذهب وزعيمه وقد تحل روح المسيح فى جسد النبى الموعود منذ مولده وقد تهبط عليه فى أى مرحلة من مراحل عمره ويسمى هذا لديهم «الحلول الثانى». وكان لأبناء هذه الطائفة طريقة فى التعبد توافقت تماما مع طبيعة راسبوتين التى تميل وتعشق الانغماس فى الجنس.

فكان أبناء هذه الطائفة يرتدون الملابس البيضاء ويلتفون فى حلقة حول شعلة نار أو حوض ماء ويبدأون احتفالهم بأداء رقصات وهم يتغنون بتراتيلهم وغالبا ماكانوا يمارسون هذا الطقس فى مكان ناء أو غابة بعيدة ويضيئون مكان احتفالهم بمئات الشموع ويظلون يتغنون بتراتيلهم حتى تزداد حماستهم وينخرطوا فى أداء رقصات عنيفة تزداد بسرعة ويراقب زعيم الطائفة أو من ينوب عنه حركة الأتباع وإذا ضعف نشاط أحدهم فى أداء الرقصات العنيفة يحق له أن يجلده بالسوط حتى يعود إلى حركته النشطة مرة أخرى.. ويظل الطقس ساريا بنفس القوة حتى يهوى الأتباع على الأرض فى حالة نشوى وتشنج جسدى وهو ما يعنى لديهم أنهم وصلوا إلى حالة من حالات التدفق الإلهى.. فالإله يحل فى الأجساد المنهكة.. وعندما يبدأون بإطفاء الشموع يقيمون علاقات جنسية جماعية.. ولايعتبرون مايقومون به خطيئة وإنما هو فعل فرض عليهم من الإله وهم بالتالى ليسوا مسئولين عنه.. فهم لابد أن يرتكبوا الخطيئة حتى يغفر الله لهم.

وأطلق أتباع الطائفة الخلوستية على أنفسهم أيضا اسم «إخوان الروح الحرة» فالعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة تساوى لديهم عبادة الله والتقرب منه.

تعرف راسبوتين على الطائفة الخلوستية فى فيرخوتور وغادر القرية بعد أربعة شهور قضاها هناك.. تأكد خلالها أنه لايمكن أن يقضى ماتبقى من حياته راهبا فى الدير وأن حياة الرهبان والأديرة لم تخلق له.. وإن كان قد تأكد خلال إقامته فى القرية بأنه يمتلك قوة خارقة وقدرات خاصة علم أنها ستؤثر بشكل ما فى حياته فيما بعد.. عاد راسبوتين إلى قريته الصغيرة الفقيرة وهو يحمل معه مبلغا من المال تلقاه كهدايا من الدير وأهل القرية إعجابا به وبقدراته الخارقة.. عاد ليواصل حياته السابقة وإن كان قد تغير بداخله الكثير من المشاعر.. فلأول مرة

يدرك أن رتابة وفقر القرية وبساطتها لم تعد تلائمه ومع ذلك عاد ليعمل كسائق عربة ومارس هوايته المفضلة لديه فى مطاردة النساء والفتيات.. حتى وقع فى ورطة.. فقد سرق أحد جياد العربة التى كان يعمل عليها وحامت الشبهات حوله وعندما قامت الشرطة بتفتيشه عثرت معه على المال الذى عاد به من الدير.. فشرح لهم مصدره.. ورجح أن الجواد قد فلت من مربطه ليلا وانزلق إلى النهر وغرق.. وأخلت الشرطة سبيله فلم تجد أى دليل يورطه فى سرقة الجواد.

واستمر فى عمله كسائق عربة حتى وقع له الحادث الثانى عندما سرق اللصوص حمولة العربة من الفراء وادعى راسبوتين أن اللصوص هاجموه وسطوا على الفراء وتأكد كذب ادعائه عندما حققت الشرطة فى الواقعة واكتشفت أن راسبوتين ترك العربة بحمولتها ونام فحكم عليه بالجلد والحبس لفترة.

وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره حضر احتفالا دينيا فى دير بجوار قريته وكان يبحث عن تلك الاحتفالات ليغرق نفسه فى الغناء والرقص واثناء احتفاله فى الدير التقى بفتاة شقراء رائعة الجمال أصبحت زوجته بعد ذلك الاحتفال.. واستمر فى عمله كسائق عربة وازدادت مغامراته النسائية ومعاقرته للخمر مع صديقيه بيجركين والبستانى بارنابى الذى سيجعله راسبوتين فيما بعد بفضل نفوذه داخل القصر أسقف توبولسك وراقبت زوجته الشابة مغامراته بهدوء وانصرفت إلى تدبير أمور المنزل والأرض حتى وقع الحادث الذى غير مجرى حياة راسبوتين.

ففى نهاية عام ١٨٩٠ أنجبت زوجته طفلا استحوذ على اهتمام وحب راسبوتين وكان يجلس أمامه يراقبه لمدة ساعات طويلة. تعلق به بشدة وما كاد الطفل يكمل شهره السادس حتى فارق الحياة.. وحطم موت الطفل قلب راسبوتين.. وجعله يتساءل عن الموت وطبيعته مما جعله يعود إلى دير فيرخوتور لمقابلة الحكيم ماكارى ليسأله عن معنى الموت.

حاول الحكيم طمأنته وتهدئته ليتقبل الأمر وعاد راسبوتين إلى قريته مرة أخرى وانصرف إلى الصلاة وقراءة الكتب المقدسة والمخطوطات القديمة.. وشاع

أمره بين أهل القرية وكانوا يراقبونه وهو جاث على ركبتيه يصلى بالساعات الطويلة حتى أطلق عليه أهل القرية لقب «الباحث عن الرب» وهو ما أثار غيظ قس القرية الذى كان يعتبر راسبوتين ماجنا ومستهترا وأن مايقوم به هو خدعة لاستدراج الفتيات.

وبعد شهور طويلة من الصلاة والقراءة أعلن راسبوتين أنه رأى العذراء معلقة فى السماء أمامه وهو يقوم بزراعة حقله وأنها أشارت إليه راغبة فى التحدث معه وعاد ببشرى رؤية العذراء إلى زوجته التى صدقته على الفور وسخر منه والده.. فما كان من راسبوتين إلا أن ذهب لرؤية الحكيم «ماكارى» من جديد الذى نصحه أن يقوم برحلة حج ويذهب للصلاة للعذراء فى دير «آفون» باليونان.. ليزيد من قواه الروحية.

وعاد راسبوتين إلى قريته وأخبر زوجته بنيته للحج.. واصطحب معه صديقه بيجركين وارتديا ملابس الحج وقطعا الطريق فى ثلاثة أشهر وعندما وصلا فى نهاية الرحلة إلى الدير الذى كان مشهورا برهبانه الزاهدين عكفا على العبادة التى لم تمس الكثير من قلب راسبوتين الذى سرعان ما اكتشف وجود علاقات شاذة بين رهبان الدير مما جعله يقطع رحلته ويقرر الاتجاه إلى زيارة الأراضى المقدسة بفلسطين وأثناء عودته زار كاتدرائية كازان بمدينة كازان التى تقع بالقرب من نهر فولجا ورأى فيها صور العذراء مرتدية نفس الملابس التى ظهرت بها أمامه فى الحقل.

عاد راسبوتين إلى قريته بعد رحلة استغرقت عامين وكان مظهره قد تغير كثيرا فازداد جسده قوة واكتسبت ملامحه مزيدا من الصلابة وازداد تأثير عينيه على من يلقى عليه نظراته فكان قادرا على إرباك من أمامه حتى قيل عنه إن من ينظر إليه قد يغيب عن الوعى.. استقبله أهل قريته بالترحاب بعد أن أحاطت به هالة من القداسة والاحترام لقيامه برحلة الحج الطويلة.. وعكف راسبوتين على الصلاة بعد أن أقام لنفسه مصلى واجتمع حوله أهل القرية يشاركونه الصلاة لساعات طويلة مما أثار ضيق وغضب الأب "بيتر" قس القرية الذى كان متأكدا أن

راسبوتين أحد أبناء طائفة الخلوستية وإن اجتماعاته كانت تضم النساء والرجال.

لم يجد الأب بيتر أمامه للحد من نفوذ راسبوتين سوى أن يرسل شكوى إلى أسقف توبولسك مدعيا فيها أن راسبوتين أحد أعضاء الخلوستية.

لم تأت شكوى الأب بيتر بما كان يرغب فيه إنما ساهمت فى ازدياد أتباع راسبوتين وذياع شهرته فهو قد أصبح له أتباع ومريدون من بين رجال الدين والمسئولين حتى أن رجل الشرطة المسئول عن القرية كان يحذره فى كل مرة كانت الشرطة تهاجم فيها اجتماعاته.. فلم يجدوا إلا راسبوتين راكعا مصليا ومن حوله الآخرون.

تدفقت الأموال على راسبوتين من مريديه وممن يأتون إليه راغبين فى الشفاء من الأمراض وقضاء الحوائج المختلفة وكان هو يوزع الكثير من هذه الأموال على الفقراء والمحتاجين حتى أصبح معروفا عنه كرمه الشديد وعرفت سيبيريا كلها راسبوتين ومعجزاته الهائلة حتى جاء عام ١٩٠٠ ليحمل إليه أحداثا مؤلمة فقد ادعت راقصة كانت تعمل فى سيرك متجول أنها شاهدت راسبوتين وهو يغتصب طفلتين فى أحد الحقول وأنه يسعى خلفها ليقتلها بعد أن شاهدته.. واختفت المرأة بعد أن أبلغت الشرطة وعندما وجهت التهمة لراسبوتين نفاها بقوة خاصة أن أحدا لم يتقدم بشكوى عن اغتصاب طفلتين وطويت أوراق القضية فالشاهدة لم تظهر ثانية ولم يتم إثبات التهمة على راسبوتين الذى لم يكتف بعد تلك الواقعة بجلسات الصلاة والعلاج فى قريته والمدن المجاورة لها بل فضل التجول حتى ذاعت شهرته فى مدينة كازان عندما شفى رجلا مشلولا بأن طلب منه أن ينهض ويمشى.

واصل راسبوتين جولاته التى كان يكتسب خلالها المريدين والأتباع والأعداء أيضا حتى وصل إلى دير بمدينة كييف وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك المدينة.

وفى ذلك الدير حدث التحول الأهم فى حياة راسبوتين فهناك التقى بالغرندوقة آن ميلتسيا إحدى سيدات المجتمع الراقى الذى كان غارقا حتى أذنيه فى أمور الدين والسحر والخوارق والروحانيات وأسرار التنويم المغناطيسى الذى

كان شائعا بقوة فى تلك الفترة واشتهر به راسبوتين.

كانت آن ميلتسيا وشقيقتها ابنتين للملك نيكيتا.. ملك فونتنكرو التى كانت تقع فى يوغوسلافيا وكانت الاثنتان مهتمتين بكل ما يتعلق بالخوارق والروحانيات وكانت آن ميلتسيا صديقة مقربة لزوجة القيصر وعندما التقت براسبوتين دعته لزيارتها فى شارع بطرسبورج الذى كان مقرا لسكن النبلاء والأمراء وأبناء الطبقة الراقية بعدما وصلتها أخبار قدراته الخارقة ونبوءاته وشفائه للمرضى.. شعر راسبوتين أن الفرصة الحقيقية قد جاءته فبدلا من علاج القرويين سيصل إلى المجتمع الراقى ولم يكن بعيدا عنه حلم دخول القصر الملكى.. والوصول إلى السلطة والنفوذ.. وكان الطريق ممهدا أمام راسبوتين، فروسيا كلها تخضع للقيصر الذى يحكم قبضته بقوة على البلاد ولايسمح إلا بالقليل من الحرية أمام المطالبين بحقوقهم من أبناء الشعب الذى ابتعد عنهم القيصر وأحاط نفسه بحاشية من الدجالين والمنتفعين والمؤمنين تماما بسيطرة القيصر الدكتاتورية على البلاد إلى جانب الخوف والقلق من المستقبل الذى كان ينهش القيصر وزوجته بعدما لم ينجحا فى إنجاب وريث للعرش.

لم يكتف راسبوتين بالتقرب من أبناء الطبقة الراقية فقط بل استطاع أن يثير إعجاب أهم شخصية فى بلاط القيصر أثناء زيارته لشارع بطرسبرج فقد نجح فى لقاء الأب جون سيرجييف المستشار الروحى لزوجة القيصر والذى كان يلقب بالعراف وكان الرجل مؤمنا إيمانا كاملا بالسلطة المطلقة للقيصر وبعدم منح أى حقوق يطالب بها الشعب وأن ما يمن به القيصر عليهم هو هبة لابد أن يقدروها.. كما كان الرجل شديد العداء لليهود وقاسمه راسبوتين فى أفكاره فكانت النتيجة أن ساهم الأب جون فى تقديم راسبوتين وإدخاله إلى عالم القصور بشكل مسرحى يتناسب مع شخصية راسبوتين وطبيعة المستشار الروحى لزوجة القيصر.

اشتهر الأب جون أيضا بقدرته على التنبؤ وشفاء المرضى بالصلاة عليهم لفترات طويلة حتى أن البعض رفعه إلى مرتبة القديسين.. وكان للأب جون سيرجييف كنيسته التى يسعى الآلاف لحضور الصلاة بها والاعتراف أمامه.. ولم

يكن الأب جون يجد متسعا من الوقت لسماع آلاف الاعترافات فابتكر طريقة الاعتراف الجماعى فكان المذنبون يجتمعون بالآلاف ليعترفوا بصوت عال طالبين المغفرة وهم منهمرون فى بكاء مرير رغبة فى التخلص من الذنوب.

وفى واحدة من تلك الاجتماعات المؤثرة للأب جون تم تقديم راسبوتين إلى أبناء الطبقة الحاكمة والنبلاء والغارقين حتى آذانهم فى الروحانيات والأمور الخارقة.. حمل الأب جون القرابين المقدسة.. ليناول التائبين من ذنوبهم وفجأة توقف عن أداء مهمته المقدسة وصرخ وهو يشير إلى رجل يقف فى نهاية الكنيسة ويطلب منه الاقتراب وانصاع الرجل للأمر وتقدم بخطوات بطيئة وثابتة ليسمح للعيون أن تتفحصه بدقة، كان راسبوتين الذى يحمل وجهه الهادئ وعيونه النفاذة وأمارات الثقة والقداسة.. صاح الأب جون فيه مرددا «اقترب يدفعك إيمانك بالرب وخشيتك منه» وباركه الأب جون.. ووسط دهشة الجميع طلب من راسبوتين أن يبادله التبريك.

حقق راسبوتين الكثير من النجاح ولكنه لم يصل بعد إلى القيصر وعائلته.. حتى جاءته الفرصة الحقيقية فى نهاية زيارته لبطرسبرج التى استمرت خمسة أشهر ذاع فيها صيته.. ذهب راسبوتين لزيارة رفات القديس سيرافيم الذى ضمه القيصر إلى قائمة القديسين أملا بالتشفع له حتى يستطيع إنجاب وريث للعرش.. ركع راسبوتين أمام مقصورة القديس الفضية غرق فى صلاة طويلة استمرت ساعات قضاها فى خشوع وتوسل لينهض بعدها وعيناه تزداد بريقا ليعلن أمام الجميع أن عام ١٩٠٤ لن ينقضى إلا ويولد للقيصر وريث للعرش.

كان الوقت فى نهاية عام ١٩٠٣ عندما أطلق راسبوتين نبوءته التى جعلت الأب جون يسعى إلى إعلاء مركز راسبوتين فأرسله بتوصية منه إلى الأكاديمية الدينية ببطرسبرح وفيها استطاع راسبوتين القروى الذى يمتلك عينين رماديتى اللون تنفذان إلى النفوس لتأسرها وتسيطر عليها أن يكتسب مزيدا من الشعبية داخل الأكاديمية الدينية عندما أعلن أن الإنسان لايمكن أن يصل إلى التوبة الصادقة والتغلب على الشيطان بدون أن ينغمس فى الخطيئة أولا وكانت نظريته سببا فى

ضمه إلى اتحاد الروسيين المخلصين من أجل مد يد العون وتقديم النصيحة للتخلص من المشعوذين والدجالين والمدعين خارج البلاط القيصرى.. وبتلك الخطوات الثابتة وصل راسبوتين إلى أهم رجل ذى تأثير فى روسيا كلها إلى الأسقف هيرموجن الذى يعد قلب حركة الاتحاد الذى يؤمن بسلطة القيصر المطلقة ويدعو إلى مناهضة السامية والغرب والتخلص من اليهود.

اقترب راسبوتين كثيرا من هدفه الذى كان يسعى إليه وهو امتلاك القوة التى رآها أنها أقل ما يناسب شخصيته وما يمتلكه من مواهب وقدرات خارقة.. سيضعها أمام القيصر وعائلته ليصبح هو المسيطر الحقيقى على مقادير حياتهم مؤكدا على الحكم القاسى والرهيب الذى ورثه القيصر عن أسلافه فلا سلطة تعلو سلطتهم ولا حكم يفرض عليهم ولا مكان فى مملكتهم للمنادين بالحقوق والحرية.

ورث نيقولا الثانى آخر قياصرة روسيا ملكا متخما بالآلام وميراثا من قسوة أسلافه القياصرة.. كان نيقولا يمتلك صفات شخصية تختلف عن أسلافه فقد كان يبدو لطيفا ورقيقا وحالما يميل إلى الاستسلام ضعيف الشخصية يمكن السيطرة عليه مع احتفاظه بكثير من العناد الذى ورثه عن أجداده وجعله لايدرك مدى انتشار الثورة الشعبية ضده حتى أنه رفض الاستماع إلى إجراء أى إصلاحات شعبية كان يمكن أن تجنبه انهيار ملكه ومصيره المؤلم الذى انتهى إليه.

عندما تولى الحكم كانت أيام حكم القياصرة تنذر بالانتهاء حتى زواجه كان نذيرا بنهاية ملكه فلم تكن والدته راضية عنه فاختياره لم يكن موفقا.. فقد وقع فى غرام «أليس» أميرة هيس وحفيدة الملكة فكتوريا كاثوليكية المذهب فى مملكة تدين بالمذهب الأرثوذكسى.. كانت فتاة خجولة متقلبة المزاج شديدة الانفعال .. غير قادرة فى كثير من الأوقات على التحكم فى ردود أفعالها.. شعرت ومنذ أصر القيصر على الزواج منها بحالة من العداء والكراهية تضمرها لها أم القيصر وسيدات البلاط الروسى .. لم تستطع أن تواجه انتقاداتهم وسخريتهم منها فاختارت العزلة والغرق فى الروحانيات والغيبيات واستطاعت أن تقنع القيصر

بوجود حالة من العداء والكراهية تحيط بهما وأحاطته بشكل دائم بالمخاوف وهواجس المكائد مما جعلها تساهم بتأثيرها على ازدياد حالة التردد والتذبذب فى شخصية زوجها.

ورغم اعتناق القيصرة ألكسندرا الأرثوذكسية وبحماس شديد إلا أن هذا الميل الدينى لم يمنع عنها الشعور الدائم بالاضطهاد والقلق والتوتر وازداد الأمر سوءا بعد إنجابها أربع إناث بدون أن تنجح فى إنجاب وريث للعرش فلم تجد أمامها سوى أن تحيط نفسها بكم هائل من المشعوذين والدجالين وجلسات تحضير الأرواح حتى تصل من خلالهم إلى تحقيق أملها فى إنجاب وريث للعرش.. ونجحت أن تجعل القيصر لايكاد يخطو خطوة بدون أن يسعى أولا إلى تحضير روح والده من أجل استشارته فى القرارات الهامة التى تخص ملكه.

كان إنجاب وريث للعرش حلما يداعب ألكسندرا وطريق الخلاص الوحيد للتخلص من سخرية سيدات البلاط منها بعدم قدرتها على إنجاب وريث للعرش.. ومن أجل تحقيق حلمها طرقت كل الأبواب واستعانت بالأطباء ورجال الدين والسحرة والمشعوذين حتى أنها استضافت فى قصرها مشعوذا فرنسيا كان يمتلك القدرة على التنويم المغناطيسى ويمارس الطب والعلاج.. واستطاع إيهام الملكة أنها حامل حتى تدخل طبيب القصر وأوقف تلك اللعبة وأعلن للملكة أنها ليست بحامل من الأصل وانتشر خبر الحمل الكاذب وازدادت السخرية من الملكة الهستيرية ومن تسلط المشعوذين عليها فما كان من القيصر إلا أن منح المشعوذ الفرنسى الهدايا وأعاده إلى بلده ليزداد تدفق المزيد من الدجالين على البلاط الملكى من امرأة تدعى أن الله يوحى إليها بنبوءاتها إلى رجل مشوه يعانى من الصرع ويدعى أن الوحى يأتيه أثناء نوبات مرضه وكان مقربا من الملكة رغم كل اعتراضات الأسقف هيرموجن.

وكانت روسيا تشتعل خارج البلاط الروسى، مظاهرات تقابل بإطلاق نار وسقوط مئات الضحايا وحرب تكاد تندلع مع اليابان كان مصير روسيا فيها الهزيمة.. وراسبوتين يقف متأهبا متلحفا برداء الدين مستعدا لتحقيق طموحاته

وأصبح على أبواب القصر الملكى.. بعد أن تحققت نبوءته وولد إليكسيس نيكولياڤيش ولى العهد ووريث القياصرة.. ولكنه ولد وهو يعانى من مرض سيلان الدم وهو نفس المرض الذى مات به من قبل شقيق الملكة واثنان من أبناء أخواتها وخالها.. ولد الطفل ضعيفا يصارع من أجل البقاء على قيد الحياة وحوله تتحلق قلوب الملكة والقيصر والحاشية.. كانت الصلوات لاتنقطع حول الطفل دائم المرض.. حتى نطقت آن ميلتسيا باسم راسبوتين صاحب النبوءة والقدرات الخارقة.. وكانت مهمة إنقاذ ولى العهد من الموت هى أولى خطوات راسبوتين داخل القصر الملكى.. ولدخوله قصة مثيرة.. فعندما انطلق رسول القيصر متجها إلى منزل راسبوتين لم يجده فى منزله.. فانطلق يبحث عنه فى معسكرات الغجر التى كانت تقام بجوار النهر.. كان راسبوتين يقضى ليلته منغمسا فى الرقص والغناء وشرب الخمر وارتكاب كل المعاصى والآثام والخطايا منفذا تعاليمه الشاذة التى نادى بها من ضرورة ارتكاب الخطيئة حتى يقبل الإله توبته.. كان يخطئ كل يوم ويدعى أيضا التوبة فى كل يوم.. ووسط كل المجون الذى كان غارقا فيه سمع الجميع رجلا يصيح مناديا باسم راسبوتين وعندما خرج إليه طلب منه الرسول أن يتبعه فرفض راسبوتين وعاد مرة أخرى إلى مجونه وجنونه الذى أخرجه منه زعيم الغجر بعد أن شرح له مهمة الرسول.

تنبه راسبوتين فعاد إلى الرسول.. وقرأ الرسالة التى كانت تطلب منه سرعة القدوم إلى القصر لعلاج ولى العهد من حمى شديدة أصابته.. وما إن فرغ من قراءة الرسالة حتى خر على ركبتيه راكعا يصلى .. وتحول الصخب من حوله إلى هدوء شديد ثم التفت إلى الرسول وقال له «لقد صليت له ولاخوف عليه».. عد إليهم الآن وعندما أنتهى من صلاتى .. سأذهب إليهم.

وما إن انتهى من صلواته حتى بدأت الحياة تدب من جديد فى جسد ولى العهد.. ووصل راسبوتين إلى القصر.. وسار بخطوات ثابتة إلى جناح ولى العهد.. وخر راكعا على الأرض بجوار سريره مغلقا عينيه غارقا فى الصلاة.. لم يلق بالا إلى القيصر والملكة اللذين التزما الصمت حتى تحرك الصبى.. بمرح وسعادة..

ولم تستطع الملكة السيطرة على مشاعرها فانكبت على أيدى راسبوتين تقبلهما وكتب بعد هذا اليوم القيصر فى مذكراته «تعرفنا إلى رجل الله جريجورى من إقليم توبولسك وقد أنقذ الحبيب إليكسى من براثن الموت بفضل صلواته».

وصف راسبوتين بأنه صانع المعجزات.. وأصبحت الملكة تراه مبعوث العناية الإلهية لها وبدأ الآلاف يتجمهرون حول منزله بالأيام منتظرين المثول بين يديه لتخليصهم من آلامهم وإيجاد حلول شافية لمشكلاتهم.. وأصبح راسبوتين المستشار الروحى للقيصر وزوجته.. وكان لابد له أن يعرف الكثير عن حياة البلاط والملوك فهو فى النهاية لم يكن سوى فلاح لم يحصل على قسط وافر من التعليم والثقافة وساعده فى تلك المهمة مجموعة من أصدقائه بهرهم قربه الشديد من القيصر وزوجته وكان «أرون سيمانوفيش» الجواهرجى اليهودى الديانة واحدا من هؤلاء كانت له علاقات متشعبة بالطبقة الحاكمة وكان يجاهد للحصول على مكانة محترمة فى الوقت الذى كان اليهود فى روسيا يخضعون لسوء المعاملة والاضطهاد.. فعرض عليهم السكن فى أطراف المدينة وحرم عليهم إرسال أبنائهم إلى المدارس وعدم استخدام خدم من المسيحيين.. وتعرف براسبوتين عندما نجح الأخير فى علاج ابنه.. وبسرعة أدرك اليهودى أن راسبوتين سيتحول إلى أقوى رجل فى روسيا.. فوضع نفسه فى خدمته من أجل تعريفه الكثير من أمور السياسة ودسائس البلاط وكان وسيلة راسبوتين للتعرف على الأميرات والمقربات من القيصر وزوجته حتى يكتسب ود الجميع ونجح فى تعريفه «بآنا فيروجوف» ابنة رئيس القضاء القيصرى وأقرب المقربات للملكة وكانت آنا مقدمة على الزواج من ضابط روسى نصحها راسبوتين بعدم اتمامه لأنه زواج محكوم عليه بالفشل ولم تستطع آنا إيقاف الزواج ولم تمض شهور قليلة عليه حتى تحققت نبوءة راسبوتين وانتهى زواجها مما جعل مكانة راسبوتين تزداد لديها ولدى الملكة.. حتى تحولت آنا إلى الدفاع الدائم عن راسبوتين أمام مكائد أعدائه الذين ازدادوا مع ازدياد حظوته داخل البلاط الروسى كانت دائما ماتنفى عنه تهم الفساد والفجر والمجون مؤكدة للملكة أن مايقال عنه ليس إلا من قبيل الحقد والحسد.. وازدادت

سيطرة راسبوتين بعدما قرب إليه الرجل الثانى من أصدقائه بيتر أليكساندر وفيتش طبيب الأعشاب الذى تعود أصوله إلى منغوليا.. كان الرجل متمكنا من أسرار العلاجات الصينية والشرقية القديمة واستطاع مع راسبوتين أن يكونا حلفا مخيفا.. وأن يقترب من القيصر ليؤثر على قراراته السياسية خاصة بعد أن استطاع إقناع قادة منغوليا بالتحالف مع روسيا فى حربها ضد الصين.. وانهمك الطبيب فى تدبير المكائد السياسية مستندا على صداقته لراسبوتين حتى اخترق ذلك التحالف. الرجل الأكثر خطورة من أصدقاء راسبوتين المغامر والجاسوس الخائن «أسفيتش ماينيلوف» الذى كان يبيع خدماته للثوار ورجال الشرطة والساسة بكل انتماءاتهم وكان شعاره الدائم الذى يردده «أنا رجل لا أملك ذمة.. أعبد المال وأقدس الحياة».

كان ماينيلوف يزور راسبوتين يوميا ويجتمع به لساعات طويلة يقضونها فى التهامس ووضع المكائد والمؤامرات وعن طريق راسبوتين اقترب ماينيلوف من القيصر وكان دائم إسداء النصح له بمقابلة الثورات والاحتجاجات بالقمع وسفك الدماء وإقامة المذابح المنظمة.

وتحول راسبوتين بقربه الشديد من البلاط وتأثيره المتزايد على القيصر وزوجته إلى مركز للمؤامرات والدسائس وأيضا للمعلومات السرية.. مما ولد له عددا كبيرا من الأعداء كانوا يزدادون فى كل يوم يقترب منه راسبوتين من العائلة المالكة وخاصة بعد أن انتشر إذعان الملكة له وتأثرها الشديد به فكانت تكفى كلمة واحدة من راسبوتين لنفى وعزل السياسيين الذين يتجرأون على انتقاده والتحذير منه حتى بلغ الأمر أن انتشرت إشاعة تقول إن الملكة ألكسندرا وابنتيها الكبيرتين كن من عشيقات راسبوتين ولم تساهم هذه الإشاعات فى القضاء عليه بل جاءت برد فعل عكسى تماما فلقد ازدادت حظوة راسبوتين بين نساء الطبقة الراقية وأصبح صاحب الشخصية المغناطيسية ضيفا دائما على بيوتات المجتمع الراقى والأميرات اللاتى كن يتسابقن على إرضاء رغباته وشهواته الجنسية وكن سعيدات باللقب الذى كان يطلقه عليهن بأنهن الأخوات المقدسات مما جعل

راسبوتين يزداد قوة يوما بعد يوم خاصة بعد نجاحه فى فرض سيطرته الكاملة على المجتمع الروسى بعد أن نجح فى فرض سيطرته على ساكنى القصر الإمبراطورى.

فى نفس الوقت الذى ازدادت فيه قوة راسبوتين .. بدأت العواصف تحيط بروسيا القيصرية لتزداد ضعفا وانهيارا نتيجة ضعف القيصر ودخوله فى حروب كانت تنتهى كلها لصالح الآخرين مع ازدياد موجة الغضب الشعبى وازدياد نفوذ الثوار البلشفيين وعندما حل عام ١٩٠٨ واجهت روسيا أزمة ساخنة مع النمسا التى كانت تطالب بحقوقها فى امتلاك البوسنة والهرسك تنفيذا للمعاهدة التى كان وقعها ألكسندر الثانى قبل الحرب الروسية التركية والتى كانت تقضى بحق النمسا باحتلال البوسنة والهرسك مقابل مساندتها لروسيا فى حربها مع تركيا ورغم إخفاق النمسا فى تنفيذ نصيبها من الاتفاقية وعدم نجاحها فى مساندة روسيا فى حربها مما أدى إلى إلغاء الاتفاقية إلا أنها رأت نفسها صاحبة الحق فى امتلاك البوسنة والهرسك.. وخضع القيصر لرغبة النمسا بعد العديد من المعاهدات والاتفاقيات وقيل إن راسبوتين كان وراء خضوعه للتخلى عن البوسنة والهرسك لأنه دائما ما كان يردد أن البلقان لاتستحق التضحية بحياة جندى روسى واحد من أجلها.

ازداد الغضب العارم على سطوة راسبوتين .. وكانت التقارير تقدم ضده إلى القيصر الذى لم يكلف نفسه عناء قراءاتها بل كان يكتفى بإلقائها فى أحد الأدراج المهملة.

اكتسب راسبوتين عددا كبيرا من الأعداء حتى أن الصحف الروسية بدأت فى التحذير من خطورته وعملت على كشف انتمائه للطائفة الخلوستية وفى سرد القصص والحكايات عن احتفالات الأخوات المقدسات.. وفرض القيصر عقوبات مالية باهظة على تلك الصحف التى تهاجمه.. وفى نفس الوقت كان راسبوتين مازال يحتفظ بصداقات متينة مع كبار رجال الدين الذين ساندوه منذ البداية وخاصة مع الأسقفين تيوفان وهيرموجن والراهب إيليودور الذى كان يحظى

بالاحترام من الكثيرين بسبب زهده وروعه ورغم ذلك كان يكن كثيرا من الاحترام لراسبوتين بصفته رجلا مقدسا.. حتى اقترب منه.. وبسبب ذلك القرب أصبح فيما بعد من أشد أعدائه ضراوة ولم ينله من هذا العداء إلا النفى والتشريد.

فى عامى ١٩٠٨ - ١٩٠٩ جمع كثير من اللقاءات راسبوتين بالراهب «إيلبودور» الذى كان يشرع فى بناء كاتدرائية ضخمة أطلق عليها القلعة الروحية فى مدينة التزراسين.. ودعا إيلبودور راسبوتين لزيارة القلعة.. وما إن وضع راسبوتين قدمه فى المدينة حتى استطاع أن يسيطر على أبنائها، وشعر إيلبودور بالهلع والرعب عندما شاهد بنفسه أفعال راسبوتين التى كان أقلها احتضان النساء وتقبيله.. مما جعل الراهب المتزمت يشعر بخطورته الشديدة وفجره وابتعاده عن العقيدة المسيحية وازداد الأمر سوءا عندما قصده شاب من أتباعه متضرعا له أن ينقذ زوجته التى تلبسها الشيطان وكانت لاتكف عن الصراخ والتشنج والهذيان بكلمات غير مفهومة فأسرع الراهب إيلبودور بالذهاب معه برفقة راسبوتين وشرع فى الصلاة عليها وقراءة الكلمات المقدسة والترانيم.. إلا أن المرأة لم يتغير حالها.. وهنا تدخل راسبوتين وطلب من الجميع أن يخلو له الغرفة مع المرأة فأطاعه الجميع.. ليظل معها عدة ساعات داخل الغرفة المغلقة ليخرج عليهم بعد ذلك قائلا عادت المرأة إلى طبيعتها.. أصبح الشيطان خارجا.

وتكررت نفس القصة مع عدد من النساء أثناء إقامة راسبوتين.. وشهدت فشل الراهب فى العلاج ونجاح راسبوتين بعد الاختلاء بالنساء مما جعل الراهب يشعر بالضيق والحنق عليه إلا أن شعوره هذا لم يمنعه من تلبية دعوة راسبوتين لزيارة منزله فى قرية بوكرونسكو .. وفى أثناء الطريق إلى قريته تحدث راسبوتين للراهب عن مغامراته النسائية وعن معتقداته فى ضرورة الانغماس فى الخطيئة حتى يصل إلى التوبة الحقيقية وعن قدرته الهائلة على شرب الخمر.. وحاول راسبوتين إقناع الراهب باتباع خطاه واعتناق مذهبه.. وازداد الراهب رعبا عندما شاهد بنفسه استقبال نساء قريته له حتى أنه شعر أن نساء القرية كلهن تحولن إلى حريم راسبوتين ولفت نظره هدوء زوجته واستقبالها للأمر بهدوء حتى أنها

علقت عليه بقولها إن راسبوتين يمتلك قوى جنسية تكفى لكل تلك النساء.. وفى أثناء هذه الرحلة لمنزل راسبوتين اكتشف الراهب أن راسبوتين يحتفظ بمئات الرسائل من ألكسندرا زوجة القيصر وبناته أيضا فلم يتمالك نفسه من سرقة بعض هذه الرسائل يخامره شعور قوى بأنه سيحتاج إليها فى يوم من الأيام.

انتهت الرحلة وعادا إلى بطرسبورج من جديد.. ليجد راسبوتين أمامه ملامح مؤامرة مخيفة تهدف إلى إبعاده عن البلاط القيصرى فهذه المرة كان عدوه رئيس الوزراء ووزير الداخلية ستوليبين الذى شكا إلى القيصر من خطورة راسبوتين الهائلة وازدياد العداء للقيصر من الكثيرين نتيجة قرب راسبوتين منه وأنه على استعداد لكتابة تقرير مدعم بالأدلة على مجونه وحفلات الجنس التى يقيمها وانتمائه إلى الطائفة الخلوستية.. ووافق القيصر على إعداد هذا التقرير وطلب من رئيس وزرائه أن يلتقى هو أيضا براسبوتين.. ولم يغير اللقاء مشاعر العداء التى يكنها ستوليبين لراسبوتين حتى أنه وصف لقاءه به بكلمات تحمل هذا المعنى فقال: «تفحصنى بعينيه الناعستين متمتما من كلمات المخطوطات المقدسة التى تعذر علىّ فهمها ثم حرك يديه على نحو غريب أشاع فى نفسى نفورا من هذا الحشرة الجالس قبالى. ولكننى أدركت رغم ذلك أن الرجل يمتلك قدرة على التنويم المغناطيسى التى بدأت تترك أثرا قويا لدىّ».

قدم ستوليبين تقريره إلى القيصر الذى لم يكلف نفسه عناء النظر فيه.. وظن رئيس الوزراء أنه نجح فى مسعاه فاستدعى راسبوتين وأمره بمغادرة بطرسبورج.. ولأول مرة يدرك راسبوتين حجم الكراهية والأخطار التى تحيق به.. وقرر أن يتعامل مع هذه الأزمة بذكاء شديد.. وعاد إلى قريته ليكتشف أن هناك من جاء ليفتش وراءه.. وازداد الهجوم على راسبوتين.. وأدرك وقتها أن حتى إقامته فى قريته البعيدة لن تحقق له الأمان فقرر أن يحتمى من أعدائه بستار الدين وهى اللعبة التى يجيدها ولا يستطيع أحد غيره التفوق عليه فيها فأعلن عن نيته للقيام برحلة حج جديدة يتطهر فيها من ذنوبه المتراكمة ويبتعد فيها عن مكائد أعدائه الأقوياء.. بدأ رحلة حجه.. ولم تنقطع رسائله إلى زوجة القيصر التى كانت

شديدة الغضب من رئيس الوزراء حتى أنها طلبت من القيصر معاقبته بالنفى ولم يستطع القيصر تلبية رغبتها فالوضع السياسى لم يكن يسمح بمثل هذا التصرف.. وعاد راسبوتين إلى قريته لترسل الملكة صديقتهما المشتركة آنا فيروبوف للاطمئنان عليه ومعها إحدى صديقاتها.. ووصلتا القرية بعد ثلاثة أيام من السفر لتكتشف المرأتان الوجه الآخر لراسبوتين فى منزله ذى الطابقين الذى يبدو شديد التقشف والبساطة ورأتاه وهو يرعى زوجته وأطفاله الثلاثة ويقضى معظم وقته فى صيد السمك والصلاة.. عادت آنا إلى الملكة ألكسندرا لتحكى لها ما شاهدته ليشتد ألم الملكة لفراق راسبوتين.. وتزداد خطاباتها إليه شوقا وتضرعا وإيمانا لاينقطع به وبمعجزاته حتى أنها فى إحدى خطاباتها إليه.. كتبت له:

«أبى المقدس .. لم لم تكتب لى؟ .. لم هذا الصمت الطويل المستمر؟ ألا تعلم أن قلبى أبدا تواق إلى أخبارك وإلى كلماتك تسرى عنى الهموم! إنى أحبك يا أبتاه.. أنت كل شىء عندى ألا ليتنى أستطيع أن أمسك بيدك الكريمة وألقى برأسى على كتفك محال أن أنسى ما يغمرنى من شعور الرحمة والسلام حين تكون إلى جوارى والآن.. وقد ابتعدت عنى.. بدت الحياة فى نظرى قاتمة مقبضة.. وقلما أحضر الحفلات أو المآدب التى تقام فى القصر.. لقد جلست بالأمس أتحدث إلى آنا فيروبوف عنك وجعلنا نقبل صورتك ونتلو خطاباتك القديمة العزيزة.

أتمنى يا أبى أن أرزق بطفلة.. ولكن الآن يبدو عسيرا.. ساعدنى .. وصل من أجلى وصل دائما من أجل ولى العهد.. عد إلينا إنى مشوقة إليك وإنى أكاد أجن لغيبتك».

ابنتك. ألكسندرا

فى أواخر عام ١٩١١ عاد راسبوتين إلى مدينة كييف لمقابلة آنا فيروبوف وأثناء مرافقته لها فى عربتها شاهد العربة الخاصة بالقيصر وزوجته تتبعها عربة أخرى تقل ستوليبين وما إن شاهد راسبوتين عربة رئيس الوزراء حتى هتف قائلا «الموت يسير خلفه .. الموت يجرى وراءه» وفى اليوم التالى أطلق الرصاص على ستوليبين أشد أعداء راسبوتين ليموت بعد ٥ أيام فى المستشفى متأثرا بجراحه ليعود بعدها

راسبوتين إلى بطرسبرج.

وبموت رئيس الوزراء اختفى أحد أهم أعداء راسبوتين وعاد لقربه من العائلة المالكة مرة أخرى وهو فى قمة عنفوانه ونفوذه وهو الأمر الذى استدعى تجمع أعداؤه مرة أخرى.

وكان الاعداء فى هذه المرة مختلفين فهم مريدوه السابقون.. ومن ساهموا بتقديمه إلى المجتمع وأخذ شهادتهم بتقواه وقربه من الله كان أعداؤه هذه المرة كبار رجال الدين فلقد اشتد سخط وضيق الراهب إيلبودور على راسبوتين وهاله ما وصل إليه من فجر وتبجح بعدما لجأت إليه إحدى الراهبات واعترفت له أنها تعرضت للاغتصاب على يد راسبوتين.. فشعر أن الوقت قد حان للقضاء عليه فحمل قصة الراهبة وماشهده فى قرية راسبوتين للأسقفين هيرموجن وتيوفان المسئول الأول عن تقديم راسبوتين إلى المجتمع.

وتحمس الأسقف هيرموجن للتخلص من راسبوتين ونفوذه الهائل ودعاه إلى مقابلته فى أحد الأديرة.. وعندما وصل راسبوتين وجد فى انتظاره الراهب إيلبودور والأسقف وأحد الصحفيين وإحدى العرافات كانت قريبة من الملكة وتم طردها بتعليمات من راسبوتين.. وبدأ الأسقف هيرموجن بتوجيه اتهاماته إلى راسبوتين وحمله مسئولية كراهية الشعب للقيصر وقصص وحكايات ومخازى راسبوتين الجنسية وطالبه بأن يختفى ويبتعد عن البلاد والعائلة الحاكمة.

شعر راسبوتين أن هناك مكيدة محكمة تحاك حوله وأنه تم استدراجه لمحاكمته.. فصرخ فى الأسقف مهددا إياه بأنه لن يحتمله بعد ذلك وحاول أيضا أن يمسك به محاولا ضربه وخرج راسبوتين ليبدأ رحلة الدفاع عن النفس والتخلص من أعدائه الجدد.. وقرر ألا يتوانى فى الأمر.. فاتجه إلى القيصر مباشرة حاملا له قصة عداء الراهب ايلبودور له مبررا ذلك العداء بحادثة تعرض لها الراهب الذى كان ورعا زاهدا وقرر أن يترك ذلك الورع ويغرق فى مغامرات جنسية لم يكن يمتلك الخبرة الكافية لخوضها.. وقص راسبوتين على القيصر أن هناك سيدة تدعى أولجالوكيتين زوجة أحد الضباط ذهبت للاعتراف للراهب

إيلبودور وكانت تعانى من حالة نفسية حادة وتنتابها حالات هستيرية.. فحاول الراهب اغتصابها.. فشرعت المرأة فى الصراخ فتجمهر حولها أتباع الراهب لنجدتها.. فادعى الراهب أنها توسلت إليه من أجل أن يمارس معها الجنس فنهرها وطردها.. فادعت عليه ذلك.. فما كان من أتباعه إلا أن انهالوا عليها ضربا ومزقوا ثيابها وربطوها على ضهر عربة سحبتها على الجليد وزادت حالة المرأة سوءا بعد هذه الحادثة وتم استدعاء راسبوتين لعلاجها.. وتحسنت كثيرا على يديه حتى أصبحت واحدة من أخلص تلميذاته وإن كانت لم تتخلص من نوبات الهستيريا التى كانت تصيبها.

استمع القيصر إلى رواية راسبوتين وتملكه غضب عارم فأمر على الفور بنفى الأسقف هيرموجن والراهب إيلبودور إلى ديرين مختلفين.. وامتثل الأسقف لأوامر القيصر أما إيلبودور فرفض تنفيذ الأمر وقرر أن يفر هائما متجولا فى كل أنحاء البلاد مكرسا ماتبقى من عمره للهجوم على راسبوتين وفضحه حتى أنه أشاع أن ألكسندرا زوجة القيصر ماهى إلا عشيقة لراسبوتين وأنه يمتلك من الرسائل ما يؤكد صحة أقواله.. فتم تجريده من لقبه وأصبح مطارداً ومطلوبا القبض عليه حتى نجح فى الهروب إلى النرويج متنكرا بزى امرأة ومن منفاه استمر فى الهجوم على القيصر وزوجته وراسبوتين.

وتخلص راسبوتين بضربة واحدة من أشد أعدائه قوة وضراوة وتأثيرا، وعلى الفور سارع بتعيين صديقه البستانى بارنابى أسقفا لتوبولسك بعد وفاة أسقفها الذى كان الأسقف هيرموجن أشد المعارضين لهذا التعيين حتى أنه أبدى اعتراضه بشكل علنى بعد أن أفهمه راسبوتين أن هذه هى رغبة القيصر.. فكان اعتراضه على رغبة القيصر أحد أهم أسباب نفيه.

لم يهنأ راسبوتين طويلا بنصره على أعدائه من رجال الدين فسرعان ما ظهر عدد آخر اجتمعوا على ضرورة التخلص منه خاصة بعد زيادة نفوذه.. وكان عدوه هذه المرة عالما محترما يعمل كأستاذ فى أكاديمية اللاهوت فى موسكو.. نشر كتابا أكد فيه أن راسبوتين من أتباع الخلوستية.. وسرعان ما تم مصادرة الكتاب ومنع

توزيعه.. ولكنه كان بمثابة انطلاق الشرارة الأولى التى يتبعها حريق هائل، فبعده سارع عدد من الصحف بنشر فضائح راسبوتين ونفوذه الهائل وقدرته على نفى وتشريد من يغضب عليه ورغم منع نشر هذه المقالات التى تتناوله فى الصحف إلا أنها أصبحت تكتب وتتناقل بين الناس سرا ولم يجد القيصر أمامه سوى إصدار أمر إلى الصحف بمنع الكتابة عن راسبوتين وازداد الضيق والتذمر من قرار القيصر لتقييده حرية الصحافة بعد أن كان منحها بعض الحرية فى عام ١٩٠٥.

وكانت ألكسندرا زوجة القيصر تقابل هذه الاتهامات الموجهة لراسبوتين بغضب شديد حتى أنها كانت تردد دائما أن الكل يكرهه لأننا نحبه وزاد حبها الشديد لراسبوتين من كم العداء له فسرعان ماظهر له مجموعة أخرى من الأعداء الأقوياء كان أعداؤه هذه المرة من كبار الساسة وعلى رأسهم كوكوفتسيف رئيس الوزراء الذى خلف ستوليبين وجاهر ومعه عدد من كبار رجال الدولة باحتقارهم الشديد لراسبوتين.. ولجأ رئيس الوزراء الجديد إلى القيصر عارضا عليه أن يقدم له الأدلة التى تؤكد فساد راسبوتين واستغلاله لمنزلته ومكانته التى منحها له القيصر فى اغتصاب النساء والفتيات.. فوافق القيصر على مضض.. وعندما أعد رئيس الوزراء الملف الذى يحتوى على كل التقارير والأدلة لم يحظ بمقابلة القيصر واكتفى بتسليم الملف وتوجه لمقابلة راسبوتين مستجيبا لنصيحة القيصر فى لقائهما السابق.. واستقبل راسبوتين رئيس الوزراء وهو يعلم مقدما سبب زيارته ولم يستغرق كثيرا من الوقت معه وفاجأه بكلمات بسيطة لم يكن رئيس الوزراء يتوقعها.. قال له.. سأرحل.

وقبل أن يخرج رئيس الوزراء وهو يشعر أنه حقق نصرا لم يسبقه إليه أحد من قبل.. استوقفه راسبوتين.. طالبا منه أن يستمع لنصائحه للأيام المقبلة.. فيما يتعلق بتوزيع الغذاء والاهتمام بالسكك الحديدية التى تنقل المؤن والمواد الغذائية لمناطق نائية تشتعل فيها الثورة ويزداد فيها الفقر والمعاناة.

واستعد راسبوتين للرحيل من جديد والابتعاد عن العائلة المالكة فى نفس الوقت الذى كان يستعد فيه القيصر للرحيل إلى مقره الصيفى لقضاء إجازة مع زوجته

وأبنائه.. فاقترحت آنا فيروبوف على راسبوتين أن يستقل نفس القطار الذى ستستقله العائلة المالكة وعندما علم القيصر أن راسبوتين على متن نفس القطار معهم شعر بالغضب الشديد وأصدر أوامره بإيقاف القطار وإنزال راسبوتين منه على الفور.

صدع راسبوتين للأمر الملكى.. وترك القطار ليعود بهدوء شديد إلى قريته.. واحتفل أعداؤه بنجاحهم بعد أن شعروا أن القيصر انقلب على راسبوتين.. وما إن قضت العائلة المالكة عدة أيام فى منتجعهم الصيفى حتى وقعت الحادثة التى قلبت الموازين لصالح راسبوتين من جديد فقد تعرض ولى العهد لحادث أثناء قفزه من القارب فأصاب قدمه مما سبب له نزيفا داخليا وانتابته حمى شديدة يئس الأطباء من شفائها فما كان من الملكة ألكسندرا إلا أن طلبت من آنا فيروبوف أن تسرع بإرسال برقية إلى راسبوتين تطلب منه التدخل لشفاء ولى العهد وأرسل إليها راسبوتين الرد: «ليس مرض ولى العهد بخطير فلا تدعى الأطباء يسلبونه راحته بهواجسهم» وما إن وصلت برقيته حتى تماثل الصبى للشفاء وتجاوز مرحلة الخطر.. ومهما كانت أسباب نجاة ولى العهد.. فإن الفضل نسب إلى قدرات راسبوتين وصلواته التى أدركت برحمتها ولى العهد وشعر بعدها القيصر بخجل شديد بعد تصرفه القاسى معه.. ولم ينته عام ١٩١٢ حتى عاد راسبوتين إلى البلاط القيصرى مرة أخرى وهو أقوى وأشد نفوذا من أى وقت مضى.

لم يقبل القصير بعد حادثة ولى العهد الأخيرة كلمة أو تلميحا يقال فى حق راسبوتين الذى كان من ضمن مهامه إبداء رأيه فى تعيين الوزراء وفى بعض الأحيان مقابلتهم شخصيا قبل توليهم الوزارة.. وكانت كلمة واحدة من راسبوتين كافية لإقالة الوزير الذى يغضبه واستمرت العلاقة مابين القيصر والدجال قائمة.. كلما مرض ولى العهد هلع القيصر وشاهد بنفسه راسبوتين وهو يمسح بيده على رأس ولى العهد فيشفى حتى أن أعداء راسبوتين الكثيرين اتهموه بأنه يقف وراء مرض الأمير بمساعدة صديقته المخلصة آنا فيروبوف التى تمزج جرعات محسوبة من السم الذى سلمه لها راسبوتين بطعام وشراب الأمير وعندما تبدو

عليه أعراض المرض يتدخل راسبوتين بالترياق الواقى ليظل القيصر وزوجته خاضعين لسلطانه وجبروته.

وفى عام ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الأولى.. ليعلن راسبوتين موقفه منها ناصحا القيصر بعدم دخول الحرب حرصا على روسيا التى كانت منهكة فى ذلك الوقت وتعانى من نقص فى الأسلحة والعتاد وسوء الاتصالات بين وحدات الجيش رغم ضخامة عدد أبناء الجيش الروسى.. ولم يلتفت القيصر هذه المرة إلى نصيحة راسبوتين التى ذاعت فى كل مكان مما وجه الاتهام إلى راسبوتين بأنه جاسوس للألمان وطال الاتهام أيضا الإمبراطورة الألمانية الأصل.. لأنها كانت هى أيضا من أشد المعارضين للحرب مابين روسيا وألمانيا.

وتخلى القيصر عن جلسات تحضير الأرواح التى كان يعقدها فى القصر ويستمع فيها على لسان أسلافه لتعليمات كانت تنتهى دائما إلى تأكيد ضرورة احترام الأب المقدس راسبوتين رسول السماء إلى القصر الإمبراطورى.. وقرر القيصر أن يتواجد مع جنوده على جبهة القتال لبث الروح الوطنية بينهم ورفع الروح المعنوية لرجاله.. ولم يكف راسبوتين عن إبداء رأيه حتى وصل به الأمر إلى كتابة رسالة إلى القيصر يطالبه فيها بالانسحاب وإنهاء الحرب متذرعا بدعوته إلى السلام الذى يعتبر الرسالة التى جاء بها راسبوتين إلى الأرض.. ولأول مرة يحمل القيصر مشاعر غضب حقيقية ناحية راسبوتين وخاصة بعد هذه الرسالة التى كانت نقطة تحول فى العلاقة مابين القيصر والدجال.. فى نفس الوقت الذى ازداد فيه تعلق الإمبراطورة براسبوتين خاصة بعد ابتعاد زوجها عنها فأصبحت لاتكاد تفارقه وشعورها أن هناك ولأول مرة منذ سنوات طويلة تعاطفا شعبيا مع القيصر بعد إصراره على خوض الحرب من أجل روسيا.. إلا أن هذا التعاطف سرعان ما خبا وعادت بوادر الثورة الشعبية تطل من جديد بعد الخسائر الفادحة التى أصابت الجيش الروسى وارتفاع عدد القتلى به.

ورغم الأحداث الساخنة والمتلاحقة والتى كانت تنذر بوقوع كارثة للأسرة الحاكمة إلا أن راسبوتين لم يتراجع ولو يوما واحدا عن إقامة اجتماعاته وحفلاته

الماجنة لتلميذاته من الأخوات المقدسات.. وكان كل مرة يحتفل بانضمام فتاة جديدة أو سيدة إلى طائفته الشاذة وكان يقف ليستقبل الوافدة الجديدة ممسكا بالصليب فى يده محركا إياه فوق رأسها.. مسلطا عليها نظراته المغناطيسية وباقى التلميذات يرقبن المشهد بخشوع شديد وكان يبدأ طقوسه بكلمات محددة أيتها الأخت.. يامن اختارت أن تصبح عروسا للسماء انصتى إلى قولى ورددى الكلمات ورائى.. فترد الأخت الجديدة.. إنى خادمتك الأمينة يا أبتاه» فيطلب منها أن تردد القسم وراءه .. أنت أبى الطاهر المقدس. هأنذا أحنى رأسى أمامك.. وأقر بأنك مبعوث القدرة الإلهية لإنقاذ بلادنا المقدسة.. هأنذا أقر وأقسم على أن الله القدير قد اصطفى لإنقاذ روسيا مبعوثه القديس جريجورى راسبوتين وأنه مامن خطيئة اقترفها بسبب هذا الإيمان أو فى سبيله إلا غفرت لى ولم أحاسب عليها.. وإنى بالصوم أعفى من العقاب على ما أرتكب من خطايا وأن انضمامى إلى هذه الشيعة المقدسة هو بمثابة الغفران لكل ما ارتكبت أو ما أرتكب من آثام.

وعندما تنتهى الوافدة الجديدة من ترديد قسم الشيطان حتى يردد هو:

«لكى نحرر الجسد ينبغى أن نسمو بالروح.. ولا سمو بالروح إلا بالخطيئة.. فالإثم هو سبيل التقوى.. فلنأثم إذن لكى نحرر الروح من عقال الجسد.. أيتها الأخوات الطاهرات يجب أن تأثموا.. يجب أن ترتكبن الخطايا.. حتى تظفرن بالغفران إن الروح القدس تملؤنى .. فمن أثمت معى فقد كتبت لها المغفرة».

وما إن ينتهى راسبوتين من خطبته التى تعد بمثابة ركائز عقيدته الشيطانية حتى تردد الأخوات هتافات الحمد لله.. الحمد لله.

وينهى راسبوتين مراسم انضمام الأخت الجديدة بأن يجرى بأصابعه فوق جبينها مطالبها بأن تقسم على أن تكتم سر هذا المذهب الدينى حتى عن أقرب الناس إليها.. عن زوجها وأخيها وابنها وعائلتها.. وعن كل مخلوق ماعدا أبناء طائفته.

وعندما تنهى الفتاة القسم .. يعلن عن قبولها بينهم بقوله:

«أنا جريجورى راسبوتين قد أرسلت إليك منقذا ومرشدا.. آمنى بتعاليمى تكتب

لك الحياة الأخرى.. تمردى يحق عليك العقاب»

ولم تكن حفلات راسبوتين الماجنة بعيدة عن رقابة أعدائه فقد كان الجنرال دزهانوفسكى رئيس الشرطة يكن له كراهية عميقة ووضع نصب عينيه مراقبته بشكل دائم.. وكان يرسل أخباره أولا بأول إلى القيصر على جبهة القتال الذى اشتد حنقه وضيقه من راسبوتين حتى أنه أصدر أوامره بعدم دخوله إلى القصر الإمبراطورى.. وهو ماشكل ألما حادا للإمبراطورة التى كانت لاتكف عن لقائه وكتابة الرسائل إليه وكان عدم لقائها راسبوتين يعنى نهايتها.. فاضطرت إلى لقائه سرا فى منزل صديقتهما المشتركة آنا فيروبوف آملة أن يتمكن راسبوتين بقدراته المقدسة من تغيير رأى القيصر.

وحدث ماتوقعته الإمبراطورة.. ففى بداية عام ١٩١٥.. سافرت آنا فيروبوف بالقطار لزيارة والديها.. فتعرضت لحادث مروع بعد أن اصطدم القطار الذى تستقله بآخر وأصيبت بإصابات جسيمة ونقلت فى حالة سيئة إلى مستشفى تملكه طبيبة من العائلة المالكة والتى فشلت فى علاجها فقد كانت إصابتها جسيمة وأعلنت الطبيبة أنها فى عداد الأموات.. ولم يعرف راسبوتين بخبر الحادث إلا بعد يوم من وقوعه فانطلق مسرعا لرؤيتها وعندما دخل المستشفى كان يجلس بجوارها القيصر والإمبراطورة فلم يلق عليهما نظرة واحدة.. وأسرع ليمسك بيدى المريضة طالبا منها أن تفتح عينيها وتنظر إليه.. فاستجابت المريضة ونطقت بكلمات متفرقة .. «جريجورى الحمد لله» وظل ممسكا بيديها متمتما بكلمات غير مفهومة ثم تركها ووجه حديثه للقيصر لأول مرة منذ دخوله على المريضة قائلا: «ستعيش ولكنها ستكون مشلولة» وأسرع بالخروج متعثرا وما إن خطا خارج الغرفة حتى سقط مغشيا عليه لتبدأ آنا فى استعادة عافيتها بعد زيارته لها.. التى تركت أثرا هائلا على القيصر بعد أن شاهد بنفسه مافعله راسبوتين وذكره ذلك بما يفعله مع ولى العهد. .

ليعاوده من جديد الشعور بالذنب ناحية راسبوتين وبالخطأ الشديد لشكه فى رسالته المقدسة.. ليتراجع عن موقفه ويعود لراسبوتين من جديد قوته ونفوذه..

وانتشر خبر فرض حماية القيصر على راسبوتين من جديد فلم تكد تمر سوى أربعة أيام على معجزة شفائه لآنا حتى تعرض راسبوتين لحادث غامض أثناء سيره على الثلوج بعد أن اندفعت نحوه عربة ثلوج يستقلها عدة رجال وداهمته بقوة ليسقط راسبوتين بين الثلوج وتنقلب العربة وعندما قدم رجال الشرطة كانت إصابات الطاغية طفيفة وبعد التحقيق مع راكبى العربة تم الكشف عن هويتهم فهم من مدينة تزارسين التى كانت تابعة للراهب الهارب ايلبودور عدو راسبوتين والعائلة المالكة.. وتم الإفراج عن راكبى العربة بعد أن أعلنت الشرطة أنها مجرد حادثة ولا توجد أدلة على نيتهم اغتيال راسبوتين.

نجا الطاغية من محاولة قتله ليعود إلى استئناف حياته من جديد ولكن بعد أن وضع نصب عينيه التخلص من عدوه الجديد الجنرال دزهانوفسكى رئيس الشرطة الذى كان يتعقب راسبوتين خطوة بخطوة حتى يستطيع جمع الأدلة التى تدينه.. فتبعت جواسيسه راسبوتين فى كل مكان فأثناء تواجد القيصر على جبهة القتال.. سافر راسبوتين لموسكو لزيارة قبور البطارقة .. وما إن انتهى من زيارته الدينية حتى سارع لزيارة أحد بيوت الدعارة الشهيرة.. وقاده فضوله ليقتحم إحدى الغرف المغلقة فارتفعت من داخلها أصوات استغاثة من هيئة المقتحم الغريبة.. فسارع مدير البيت لاستدعاء الشرطة التى اقتادته إلى مركز الشرطة وكان شبه عار.. وعندما علم مدير المركز بشخصية راسبوتين.. شعر أن الأمر أكبر منه فسارع إلى الاتصال بمدير الشرطة الجنرال دزهانو فسكى الذى أمرهم باعتقال راسبوتين وعدم إخلاء سبيله لعدة أيام.

وكان مدير الشرطة سعيدا بهذه الواقعة فقد ضمها إلى وقائع أخرى حدثت قبلها بعدة شهور وكانت تدين راسبوتين وتفضح سلوكه الشائن. فقد كان مسافرا على متن إحدى البواخر وكان مخمورا مترنحا من شدة السكر وافتعل العديد من المشاجرات التى جعلت ركاب السفينة يحاصرونه فى قمرته ويطالبون بحلق لحيته.. جمع مدير الشرطة تلك الوقائع ووضعها أمام القيصر.. ليشتد غضب القيصر عليه وقبل أن يستفحل الأمر ويأمر بطرده من القصر.. سارع راسبوتين

للقاء الإمبراطورة وأعلن أمامها أنه أخطأ ولكن خطأه لايكفى للحكم عليه وأنه ضحية مؤامرات مدير الشرطة الذى تعمد الإفراج عن من حاولوا قتله من قبل وأنه ينتهز كل الفرص للتخلص منه وشعرت الإمبراطورة بغضب هائل وأبلغت القيصر بضرورة طرد مدير الشرطة من منصبه لتآمره على راسبوتين.. وهو ما تم بالفعل.. وخرج الجنرال دزهانوفسكى مهزوما من معركته مع راسبوتين بعد أن ظن أنه كان قاب قوسين أو أدنى من القضاء عليه.

كان إصرار القيصر للتواجد على جبهة القتال قد ترك المجال متاحا أمام الإمبراطورة وراسبوتين لحكم روسيا حسب رؤيتهما فقد كانت الإمبراطورة مؤمنة بالحكم المطلق وعدم منح الحكم أى نوع من الدستورية مقابل الحفاظ على العرش لولى العهد وهو ماجعل راسبوتين يعين الوزراء الموالين له.. وانهار الوضع تماما فى روسيا فالمواد الغذائية لاتكفى الجيش الذى تتوالى عليه الخسائر الفادحة ويحصد الموت الملايين من شباب روسيا.. والشعب لا يجد ما يكفى قوته.. وراسبوتين غارق فى حفلاته الماجنة سامحا لأعوانه بنهب ثروات الشعب والإمبراطورة تتصدى بقوة لأى محاولة للقضاء على صديقها الحبيب كما كانت تطلق على راسبوتين.. والثوار يشتد غضبهم ويسعون لتمزيق العائلة المالكة والقضاء على الحكم الإمبراطورى الفاسد.. وكانت السجون تفتح أبوابها كل يوم لتستقبل عشرات المئات ممن تجرأوا على انتقاد القيصر وراسبوتين.. وفى كل يوم تنصب المشانق لتنطبق حبالها على أعناق كل من يرفع أصبعا فى وجه الراهب الدجال بعد أن أصبح هو الحاكم الفعلى لروسيا. وبدت النهاية قريبة.

والغريب أن راسبوتين كان هو أول من شعر وتنبأ بقرب نهايته فى بداية شهر ديسمبر عام ١٩١٦ كان يسير على ضفاف نهر (النيفا) وعاد إلى منزله وجلس وكتب رسالة إلى عائلته ذكر فيها أنه أثناء سيره على ضفة النهر رأى نبوءة فقد شاهد دماء القيصر وعائلته تمتزج بماء النهر.

وغرق راسبوتين فى صمت رهيب.. ليكتب بعدها رسالة وجهها إلى القيصر ووضع لها عنوان «روح جريجورى ايفموفيش راسبوتين».

قال فيها: أكتب رسالتى هذه لأتركها برهانا لى فى مدينة القسيس بطرسبورج وأنى لأشعر أنى مفارق الحياة.. وأتمنى أن يدرك كل الشعب الروسى والبابا «وكان يقصد القيصر» والأم الروسية «ويعنى الإمبراطورة» وجميع الأطفال الروس والتراب الروسى العطر مايجب أن يذكروه «إذا ما قتلنى إخوتى فلاحو روسيا فلا خوف عليك أيها القيصر وسيبقى عرشك حاكما ويا أيها القيصر لاتخشى على أطفالك شيئا فإن لهم حكم روسيا. ولكن إذا ما اغتالنى النبلاء وإذا ما أهدروا دمى لسوف تظل أيديهم ملطخة بدمى ولن تغسلها لهم السنوات الخمس والعشرون القادمة وسوف يهجرون روسيا تاركين الأخ يقتل أخاه ولن يكون للنبلاء مكان فى البلاد.. يا قيصر الأراضى الروسية.. إذا ما سمعت مناديا ينبئك بقتلى فعليك أن تعرف التالى. إن كان قاتلى من أهلك فلن يبقى منك ولك أحد حيا لأكثر من سنتين بعد موتى وقاتلهم شعبك الروسى.. أننى أرحل وفى داخلى أمر إلهى أن أخبر قيصر روسيا بالذى عليه فعله بعد رحيلى.. توخى الحكمة فيما أنت فاعل وترقب صداها فى نفوس رعاياك .. عليك بسلامتك وأخبر من الأقرباء أنى أشاطرهم بقاءهم بدمى.. إننى مغادر الدنيا ولم أعد من أحيائها فصل لأجلى.. صل وكن قويا واعتن بعائلتك المباركة»..

جريجورى..

انتشرت أخبار نبوءة موت راسبوتين وقصة خطابه ولقائه الأخير مع القيصر الذى انتهى بأن طلب القيصر من راسبوتين أن يباركه.. فرد عليه قائلا «حان الوقت الآن لتباركنى أنت»..

لم يكن شعور راسبوتين القوى بقرب نهايته كاذبا ففى ذلك الوقت كان الوضع قد أصبح شديد الخطورة فى روسيا وكان لابد من وضع نهاية لراسبوتين الذى يحتمل مسئولية انهيار الأوضاع فى روسيا.. فتحمس بعض من أبناء العائلة المالكة للقضاء على راسبوتين وكان أشدهم تحمسا الأمير فيلكس يوسبوف زوج إيرينا ابنة شقيق القيصر والأمير ديمترى فالوفيش ابن شقيق القيصر وضابط شاب يسمى «سوخوتين»، وفلاديمير بيرشيكيفتش والطبيب لازافيرت.

اتفقوا على استدراج راسبوتين لمنزل يوسبوف لحضور حفلة تقيمها زوجته إيرينا التى كان راسبوتين يتطلع للقاء بها بعد ما اشتهرت بجمالها وجاذبيتها.

وكانت خطة المجموعة تقضى بتسميم الحلوى والخمر التى ستقدم إلى راسبوتين بسم سيانيد البوتاسيوم.. وعندما وصل راسبوتين إلى قصر يوسبوف سمع صوت الموسيقى فأخبره يوسبوف أن لدى زوجته زوارا وأنها ستنضم إليهما فور مغادرتهم.. ومضى الاثنان لغرفة الجلوس السفلى وتناول راسبوتين بعض الحلوى المسممة وعدة كئوس من الخمر المسموم.. وأمام ذهول الأمير تحرك الطاغية بشكل طبيعى بل وطلب منه أن يعزف على الجيتار ويغنى.. فالسم الذى كانت تكفى منه بعض ملليمترات لقتل إنسان لم تؤثر الكمية الهائلة التى تناولها فى أن تصيبه حتى بمجرد تقلصات.. وقبل أن ينكشف أمر الأمير وارتباكه أمام نظرات راسبوتين المغناطيسية سمعا صوتا يأتى من الأعلى فاستأذن الأمير ليأتى بزوجته للقاء راسبوتين وصعد إلى أعلى ليلتقى بباقى المتآمرين وأخبرهم أن السم لم يأت بمفعوله وسحب مسدسه وعاد إلى الغرفة ليجد راسبوتين جالسا محنيا رأسه.. ويشعر ببعض الألم .. فأشار الأمير إلى صليب من الكريستال وطلب من راسبوتين أن ينظر إليه ويؤدى صلاته.. فاستدار راسبوتين وهو فى حالة من الدهشة لطلبات الأمير الذى أطلق رصاصتين استقرتا فى ظهره ووقع على الأرض.. فأسرع باقى المتآمرين للتأكد من موته.. وفحصه الطبيب وأعلن موته.. ثم نزعوا معطف راسبوتين وارتداه الضابط (سوخوتين) وخرج من القصر.. حتى يظن المخبرون الذين كانوا دائما مايتبعون راسبوتين أنه غادر القصر. وظل الأمير ينظر إلى جثة راسبوتين برعب شديد خوفا من أن يعود إلى الحياة مرة أخرى خاصة بعدما ارتبط بالطاغية قدرته على إتيان الخوارق وفجأة حدث ما كان يخشاه وتحركت جفون راسبوتين وتحرك ببطء شديد محاولا النهوض.. فهرب الأمير وهو يصرخ خائفا يطارده راسبوتين وهو يزحف على يديه وقدميه حتى استطاع أن يخرج إلى ساحة القصر فانطلق بيرشيكيفتش خلفه وأطلق عليه نيران مسدسه.. فتهاوى جسده فأسرعوا لحمله داخل المنزل من جديد وانهالوا على

جسده بقطعة من الحديد.. ولم يكتفوا بذلك بل قيدوا الجثة فقد كان لديهم إحساس أنه لم يفارق الحيارة بعد وأنه قادر على القيام مرة أخرى.. وضع المتآمرون الجثة فى سيارة الأمير وانطلقوا بها حتى وصلوا إلى نهر (النفكا الصغير) وألقوه فى حفرة جليدية وألقوا معه معطفه وحذاءه وانتظروا حتى شاهدوا الجثة تهبط إلى القاع وانصرفوا.. ولم يشاهدوا حذاءه وهو يطفو على السطح.

لم يعد راسبوتين إلى منزله فى تلك الليلة.. مما جعل القلق يساور ابنته ماريا التى كانت تقيم معه.. فاتصلت بالإمبراطورة تسألها عن أبيها.. فوجدتها لاتعرف مكانه وسارعت الإمبراطورة بالاتصال بآنافيروبوف التى شعرت بالقلق الشديد لعلمها أن راسبوتين كان سيذهب لزيارة الأمير يوسبوف .. فأمرت الإمبراطورة بسؤال الأمير الذى أكد أن راسبوتين غادر منزله فى الثالثة فجرا.. ولم تصدق الإمبراطورة روايته وأمرت بتفتيش منزله.. وأسفر التفتيش عن وجود بقع من الدماء فى إحدى غرف القصر وفى ساحته وفى سيارة الأمير وأثناء البحث عنه تم اكتشاف الجثة بعد أن أرشدهم إليها حذاؤه الطافى على سطح النهر.. وتم استخراج الجثة واستدعاء ابنته للتعرف عليها.. وجاء تقرير الطبيب الشرعى صادما فهو عندما ألقى فى الماء البارد كان مازال حيا بل ووجدوا يده اليمنى قد تحررت من القيود.. وكان شعره أجعد مغطى بكتل من الدماء ووجهه متورما وجسده داميا وخرجت عناوين الصحف لتعلن «مات راسبوتين».

وفى ٣ يناير عام ١٩١٧ تم دفن جثة راسبوتين فى الساحة الإمبراطورية وحضر مراسم الدفن العائلة المالكة.. ولم يكن هناك حزن يضاهى حزن الإمبراطورة التى وضعت نصب عينيها البحث عن قاتل راسبوتين وإعدامه.. وحامت كل الشكوك حول الأمير يوسبوف وتم التحقيق معه عدة مرات ولم تشفع له مصاهرته لعائلة القيصر وأصدرت الإمبراطورة حكما بإعدامه إلا أن هذا الحكم تسبب فى ثورة داخل الجيش وبين النبلاء فتم نصحها بإلغاء حكم الإعدام وانتهى الأمر بنفى الأمير يوسبوف والأمير دميترى بافلوفيش ابن شقيق القيصر إلى بلدة نائية

موحشة بجنوب روسيا.

لم ينته أمر راسبوتين بمقتله فمازالت نبوءته المتعلقة بفناء العائلة الإمبراطورية قائمة وتوالت الحوادث سراعا.. فاشتدت حركة التذمر فى البلاد وأضرب العمال وانهال رصاص الشرطة على المتظاهرين المطالبين بالغذاء واندلعت الثورة فى العاصمة بيتروجراد بسبب نقص الخبز وعلت الهتافات لتطالب بسقوط الإمبراطورة الألمانية.

وبدأ التمرد يصل إلى بعض كتائب الجيش.. واجتاحت الثورة كل أنحاء البلاد لتتمزق الإمبراطورية الروسية ويتنازل القيصر عن العرش باسمه وباسم ابنه ولى العهد واقتيد القيصر وعائلته إلى إحدى البقاع النائية ليشهد نهاية الحلم الذى عاش من أجله وليشهد أمام عينيه ضياع ملكه ومقتل ولى عهده وفناء أسرته بالكامل الذى انتهى بإعدامه هو شخصيا.

وتحققت نبوءة راسبوتين الأخيرة وضاع ملك القيصر بعد أن قتل أفراد من عائلته الطاغية الدجال.. الذى امتلك قدرات خارقة منحها له الشيطان ليفرض سيطرته على الإمبراطورية التى انتهت بعد أن هيمن عليها راسبوتين بقواه الخارقة.. فحتى الأشرار قد يمتلكون قوى هائلة يخدمون بها أغراضهم والشيطان مستغلين بساطة السذج مسيطرين عليهم بسلطان الدين.